الظلال الوطنية والسياسية والنفسية للمكان في القصة الجزائرية القصيرة "خطوات على الرصيف البحري" لمرزاق بقطاش أنموذجا

National, political and psychological misguidance of place in the Algerian short story: Steps on the pier by Merzak Baktach as an example

طالبة الدكتوراه/ بزيو ثريا
الأستاذ الدكتوراه: عبد الكريم شبرو

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الوادي (الجزائر)

مخبر التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي.

thouraya-bezziou@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 تاريخ القبول: 2024/05/29 تاريخ النشر: 2024/09/15

ملخص:

جاءت هذه الدراسة للبحث في أهمية المكان الذي يلعب دورا هاما وفاعلا في التخييل السردي، لما له من أهمية بالغة؛ لأنه يقدّم أبعادًا ودلالات وايحاءات عدّة تختلف بين الجمالية والفكرية، الاجتماعية، السياسية، الثقافية، الدينية، النفسية، الأخلاقية، الوطنية...، ويختلف المكان باختلاف توظيفاته ودلالاته في النص، فهو عنصر فاعل في تسيير الأحداث ومؤثر في بقية العناصر التي يتشكل منها النسيج السردي ملقيا بظلاله على متون السرد وتفاصيله وقد اخترنا القصة القصيرة "خطوات على الرصيف البحري" ضمن المجموعة القصصية المعنونةب "آخر القعدات" للكاتب الجزائري مرزاق بقطاش، الذي أشعل الذاكرة وآثارها في أحزان النفس التي هامت في الوطن حبّا من خلال المكان .

الكلمات المفتاحية: المكان، البحر، القصة الجزائرية القصيرة، الظلال النفسية، آخر القعدات، مرزاق بقطاش.

***Abstract**:*

This study examined the importance of a place that plays an important and effective role in narrative imagination, which is of great importance; Because it offers many dimensions, connotations and connotations that differ between aesthetic and intellectual, social, political, cultural, religious, psychological, moral and national..., and the place varies according to its functions and connotations in the text, it is an active element in the conduct of events and influential in the rest of the elements of the narrative fabric, casting a shadow over the narrative's robustness and detail. "Steps on the pier" in the collection of stories entitled "The Last sitting" The Algerian writer Marzak Bakttach, who ignited the memory and raised it in the self-sorrows that fell in love at home through the place.

***Key words**:Place, Sea, ShortAlgerian Story, Psychological Shadows, Last Sitting,Marzak Bakttach.*

مقدمة:

مرزاق بقطاش اسم لامع فرض نفسه في الساحة الأدبية الجزائرية والعربية بجدارة، وقد جاء أغلب إنتاجه سردا وتنوع بينالقصص والروايات. كما أنَّ أدبه يتسم بالواقعية، حيث يصف وينقل الواقع بحذافيره، ولطالما اختار البحر والمدن البحرية مكانا تدور فيه الأحداث، ذلك لأنه سليل بحارة، وهو كاتب ملتزم بقضايا الإنسان عامة والجزائري خاصة فقد صور واقعه وأحلامه وآلامه في إنتاجه...، ويظهر ارتباطه بالواقع جليا في اختياراته المكانية، والتي كان أغلبها البحر، والبحر هو مكان مادي موجود في الطبيعة ليحوله الكاتب من إطاره المادي الواقعي إلى إطار تخييلي تقوم عليه باقي العناصر الروائية؛ شخصيات، زمان، أحداث، لغة، ليمنحها -المكان- بدوره مناخا تتفاعل فيه محملا الكاتب إياها ثيمات ورؤى معينة يريد تمريرها ضمن هذا القالب الفني الذي يلعب فيه المكان دورا بالغ الأهمية فكيف وظف المكان؟ وماهي دلالاته وظلاله في النص؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة علينا أولا الإحاطة بالحدود والمصطلحات.

1. مفهوم المكان:

للمكان أهمية كبيرة في السرد لأنه أحد المكونات الأساسية التي يقوم عليها، حيث يتظافر مع بقية العناصر السردية وهو عنصر فعال في السرد بحيث لا يمكن الاستغناء عنه، فهو نظير لهوية الإنسان وتاريخيته وكينونته وثقافته وأفكاره، فلا يمكن تصور عمل سردي دون مكان تقع فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات لتطور سيرورة الأحداث، وهذا ما يغري القارئ والمتلقي لتتبع الأحداث التي لا يمكن تخيلها إلا ضمن إطار مكاني وزماني معين.

أ- لغة: ورد تعريف المكان في الكثير من المعاجم اللغوية من بينها لسان العرب لابن منظور وقد جاء فيه تحت مادة "مكن" أنّ المكانُ والمَكانةُ واحد...والمكان: هو الموضع، والجمع أمكنة... وأماكِنُ جمع الجمع. قال ثعلب: يبطُل أن يكون مكانٌ فعالا لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه؛ قال: وإنما جمع أمْكِنَةٌ فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصيلة."[1] ونستخلص من هذا التعريف أن المكان يعني الموضع لكينونة الشيء.

ب- اصطلاحا:

إنّ النص السردي قصة أو رواية يقوم على مجموعة من العناصر لا غنى عنها وهي: الشخصية ، الزمان، اللّغة والمكان وهذا الأخير هو اللَّبنة الأساسية التي يقوم عليها البناء السردي ولا يمكن الاستغناء عنه ذلك أنه هو البؤرة والمساحة التي تتم فيها الأحداث وفق زمن معين[2]، إذا هو عنصر مفصلي ووجوده ضروري، لا غنى عنه، فالإنسان لا يعيش حياته إلا في الأمكنة يتفاعل فيها وينفعل ويعيش ويتعايش، وليس المكان الروائي بمعزل عن ذلك فهو لبنة في التشكيلالسردي، وعنصر من عناصر البنية السردية، فهو خديم الدراما فالإشارة إلى المكان تدل على أنه جرى أو سيجري به شيء ما، فبمجرد الاشارة لمكان ما كفيلة لانتظار حدث ما...[3]

وتقول سيزا قاسم: "إذا كان الزمان يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث فإن المكان يظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحتويه"[4]. إذا هو لصيق بالبناء السردي ومحتوٍ له، والمكان في القصة القصيرة يتخذ أهمية خاصة تقول الناقدة سامية أسعد معربة عن أهميته: "لأن هذه القصة تعتمد على التركيز في كل شيء لاسيما وصف مسرح الحدث أو الأحداث، ومن ثم يتحتم على الكاتب أن يحسن اختياره وأن يصفه بإيجاز بقدر الإمكان وأن يبرز سماته الإنسانية المرتبطة بالقصة ككل".[5]

وهذا بالفعل الذي نجده في القصة القصيرة التي تقوم عليها هذه الدراسة، حيث شكل المكان فيها عنصرًا هامًا ورئيسيا وأولى له الكاتب أهمية كبرى، حين جعله محورًا تدور فيه الشخصيات والأحداث، حيث ارتبطت مصائرهم فهاهو سي حسين وهو البطل الرئيسي للقصة والتي تدور أحداثها عن سجين سياسي في زمن سابق بسبب آرائه السياسة.

وهو شخصية ثورية مناضلةجاهد ضد الاستعمار الفرنسيوقاتل ببسالة وشجاعة منقطعة النظير جعلت منه بطلا حقيقيا،حتى في أعين عدوه وحين خرج من السجن توجه مباشرة للبحر ليتنفس الحرية على مرفأ الذاكرة والحنين والشجن فالبحر يمثل له رمزا للحرية فهو المكان المضاد للسجن فأول ما فعله حينما أُطلق سراحه هو التوجه مباشرة إلى الرصيف البحري **"منذ بضعة أيام، خرج سي حسين من الحبس...، وها هو اليوم فوق الرصيف البحري الطويل"**[6].

يقابل البحر ويتأمله ليستنشق هواء الحرية العليل الذي حُرم منه ولو لم يكن المكان رمزالما اختار الكاتب المكان الضدي المعاكس للسجن وهو البحر لما يحمله من معاني ودلالات ضدية للسجن الذي قبع فيه والثمن كان حريته.

كما أننا نلاحظ أن صفة المكان أصبحت تأتينا من البطل فحال الوحدة التي يحسها والظلم والقهر انعكست على اختياره للمكان الذي ينزوي إليه وقت إطلاق سراحه من السجن، لينظف عينيه ورئته من عفانة السجن وضيقه. فمشاعر الظلم القهر التي يحسطعمها علقما في حلقه وغصة في قلبه لم تغادره أبدا لأنه غيور على وطنه فرياح حبه حينما تجتاح روحه فينتفض لها جسده فيحارب من أجل مبادئه وآرائهوكالمعتاد جزاؤه وعقابه السجن دون محاكمة وحينما يخرج فلا يجد غير البحر ملجأً ورمزا للحرية التي ينشدها فالبحر مكان مفتوح والسجن مغلق وهذه الضدية هي التي تمنح البحر رمزية الحرية.

إذًا هذا ما يعزز القول بأن المكان عنصر مفصلي لأن الكاتب اختاره دونا عن غيره من عناصر البنية السردية ليركز عليه فكما تقول سيزا قاسم عن المكان "إنه حامل لمعنى ولحقيقة أبعد من حقيقته الملموسة." [7]وفي هذه القصة وقع على عاتق البطل تشكيل صورته الرمزية ورسم معالمه من خلال منظوره وتصوره ورؤيته له، فلجوؤه للبحر وتأمله فيه مطولا يعكس تجربته الأليمة التي عمقت وأصَّلَتْ لديه الحكمة وبالتالي فالبحر يمثل الحكمة فهو حين يقابله تتداعى لديه الأفكار وتجيشفي صدره مختلف المشاعر ليحتضنها البحر ويردها إليه هدوءا وعمقا يزيد من حكمتهوهذاما نجده عند البطل دائما وأبدًا حينما يختار الرصيف البحري عن غيره من الأمكنة لأنه مكان حميمي يجد فيه ضالته، وضالته هي الحرية التي قمعها وردعها السجن لمجرد رأي سياسي وهو المجاهد الصنديد الذي حارب ضد فرنسا وناضل في سبيل استقلال الجزائر، حتى أنه مَثل أمام المحكمة الفرنسية مجابها ومدافعًا عن نفسه بكل قوته دون محامي، مثيرا إعجاب العدو نفسه بشجاعته وجبروته؛ وفي الحقيقة إنها قوة استمدها من أحقية النضال والدفاع عن شرفه وشرف بلده وأمته الإسلامية عامة، فكل نضال ضد الاستعمار هو في سبيل إعلاء كلمة الحق وهي الحرية المطلقة.

وهذا ما يَحزُّ في نفسه ويؤلمها، إنها الجزائر التي حارب وناضل من أجلها لتكافئه بدورها بما لا يستحق وهوالسجن والقمع والظلم، فسي حسين كان رجل ميدان لا يُرَوَّضُ، شخصيته قوية وصلبة لا تُكسر فـ "**ليس من عادة سي الحسين أن يدلي بتصريحات سياسية. هو رجل ميدان هذا ما عرف عنه في الحركة الوطنية. مصالي الحاج نفسه لم يستطع ترويضه حين وقع الشقاق في حزب الشعب الجزائري بعد أواخر الحرب العالمية الثانية. عيناه تكشف الكثيرعن**

شخصيته الصلبة... هو أشبه بالثور الذي ينكث الأرض بحافره القوي استعدادا للهجوم على المصارع في الحلبة".[8]

هو باختصار شخصية قوية و عنيدة في الحق ويريد إحقاقه رغم الصعاب، ولا يطيب له مكان يذهب إليه ليُؤنِس وحدته ويرى نفسه فيه إلا البحر والبحر هو المكان المميز الذي تجري فيه أحداث القصة وقبل التفصيل أكثر في ذلك دعونا نتعرف على ما يسمى بأدب البحر ذلك أن مرزاق بقطاش يعتبر ممن كتبوا وأبدعوا فيه على غرار شيخ البحارين حنا ميناالأديب السوريف"أدب البحر هو ذلك الذي يستهدف التعبير عن عالم البحر، والذي يكون البحر موضوعه الرئيسي المؤثر في الأحداث والشخصيات وفي الرؤية الكلية للعمل الأدبي، يشكل جزءًا أساسيا من تراث البشرية وحضاراتها، فيضم أدب البحر الأسطورة، والملحمة الشعر والحكاية الشعبية وأدب الرحلات البحرية والقصة والرواية".[9]

وبالفعل يعتبر بقطاش من رواد أدب البحر كيف لا وهو سليل بحارة فوالده وأجداده كانوا كذلك فقد جابوا بحار العالم، ولطالما وظف البحر كمكانسردي وسواء كان حضوره محوري أو هامشي، فاختياره البحر مكانا تقع فيه الأحداث له دلالته ورمزيته وأبعاده لأنه "تختلف نظرة الأدباء للبحر حسب رؤيتهم له، فمنهم من كان ينظر إليه باعتباره البحر المألوف، ومنهم من يرى في البحر الصديق يبث إليه أحزانه، ومنهم من يرى البحر العدو الذي لا يرحم، فيخافون ظلماته ويهابون أهواله التي لا تفرق بين الصديق والعدو".[10]إذا كل أديب يوظف البحر من منظوره الخاص ومن أجل الوصول لهدف وموضوع معينين فالبحر مكان سردي له العديد من الدلالات والرموز فقد يجيئ رمزا للمعاني الجميلة السامية مثل الحرية الحياة الأمان كما يمكن ان يكون حاملا لدلالات سلبية تعكس أفكارا ورموزا ودلالات تخدم النص شعرا كان أو نثرا، فلكل أديب وجهة نظر وايديولوجيا يتبناها قد تتفق أو تختلف مع غيره، فحينما يُوظَّف البحر كمصدر للحياة والأمان وذلك حينما يوفر للصيادين رزقهم وقوتهم أو ناقلا للبواخر التجارية، أو حينما يكون مصدر نجاة وهروب من موت محقق،كما يحمل نقيض هذه الدلالات حينما يكون هو نفسه سببا للموت المحقق حين يغدر ويفتك بحياة الناس في تقلبات أمواجه القوية التي لا تعرف للرحمة معنى وهنا يأتي توظيف البحر على حسب ما يراد له من رمزيات ودلالات ومعانٍ يُحمّلُها له الأديب.

وبقطاش شكَّل من البحر فضاءًا مكانيا هامًّا ورئيسيا حيث أولى وأفرد له أهمية كبرى، حيث جعله محورًا تجري فيه الأحداث بين الشخصيات التيتعالقت فيه مصائرهم كما أنه فيه الكثير من الدلالة على سماتهم ووظائفهم وأعمالهم فهو مكان "يتخذ أشكالا عدة وهو على علاقة وثيقة بالشخصيات التي تؤمه وتسكنه والعلامات التي يحملها تدل على الشخصية، سماتها ومهنتها وانتماؤها الاجتماعي وسلوكها".[11]

فالبحر في هذه القصة يجتمع أمامه مختلف شخصيات، منهم من يمارس الصيد ومنهم المستجم ومن يمارس التمارين الرياضية سواءا السباحة أو الركض والمشي على الشاطئ مثل بطل القصة أو المتأمل في رحابه وعظمته وجماله، وغيرها من الأمور وهناك حتى من يمارس التخابر فيلاحق الناس وينقل ما يسمعه في التجمعات والمناسبات مستغلا الجدالات والحوارات بين الناس وهم على غفلة؛ مثال ذلك حين قال: **"في اليوم الثاني من فسحته الرياضية، جاء مع سائقه، وارتدى سرواله القصير على عجل، وأدخل قدميه في نعله المطاط، وقبل أن يبدأ رياضته، حدق بعض الوقت في الرصيف البحري. هناك بعض الصيادين فوق الصخور الضخمة الزرقاء التي تعانق الرصيف عناقا قويا لكي تساعده على صد الأمواج... بمجرد أن وقعت خطواته الأولى على الرصيف، راح أحد رجال البحرية يترصد حركاته، أهو مأمور بحراسته وتتبع خطواته؟ ...رصد المُخبِرين في كل مكان، ولكن سي حسين يعرف الشعب الذي ينتمي إليه، ليس هناك مُخبِرٌ إلا ولقى حتفه منذ أن انتمى إلى عالم السياسة".**[12]

و باعتبار الكاتب ابن البحر ومشبع به روحيا وعالما بكل تفاصيله لم يغفل عن تصوير أدق التفاصيل والأوصاف فقد جاء على ذكر من يمارس السباحة في البحر واصفا إياه حين قال على لسان عبد الغني أحد شخصيات القصة: **"أنا نازل إلى البحر للاستحمام، سأقوم بتحريك ساقي في الماء!"**[13].

والبحر مكان للصيد إما للتجارة أوهواية أو للأكل، وممارسة الصيد كهواية يعلم فضيلة الصبر **"الصيادون يعالجون الصنانير بتؤدة ويعجنون أمعاء السردين بالخبز اليابس، هذا الطعم فيه رائحة شديدة تزخم الأنوف، حين يفرغ سي الحسين من رياضته، يحب التوقف قليلا على مقربة منهم، تعليقاتهم تعجبه كثيرا".**[14]يصف هنا الكاتب وبدقةعملية الصيدوكيف يبرعون بها وبكلهدوءوهذا راجع لملاحظة البطل بعين فاحصة وبنظرة ثاقبة وبقلب محب غارقا في تفاصيلهم كيف لا وأصحابه الأحباء متحلقون حوله في أحب مكان لقلبه. كل هاته التفاصيل وعلى الرغم من بساطتها بنظر البعض فهي بغاية الأهمية بالنسبة له لأنه حرم منها في السجن، إنها تفاصيل رغم بساطتها تعني له مطلق وجوهر الحرية.

كما أن البحر يعد وسيلة للسفر والتنقل والتجارة فالكاتب يصور لنا ما يحدث من أعمال عسكرية وتجارية في المرفأ: **"وتوقف بعض الدقائق يتأمل باخرة روسية وهي تدخل الميناء".**[15]

إن الكاتب بهذه اللغة السردية والأوصاف يصوّر الحياة الاجتماعية ويرصدها من خلال مكان جغرافي، حيث صوّر الأبعاد الاجتماعية والسياسية والثقافية... من خلال الفضاء المكاني "فالفضاء في السرد إلى جانب بنيته الطبوغرافية (الجغرافية، المكانية) يملك جانب حكائيا تخيليا

يتجاوز معالجة وأشكاله الهندسية، لذلك حتى لو كان الفضاء الروائي يمتلك امتدادات واقعية، بمعنى يحيل على أمكنة بها وجود في الواقع، فإنّ ما يهم في السرد هو الجانبالحكائي التخيلي للفضاء، أي الدور الحكائي النصي الذي يقوم به داخل السرد".[16]

وهذا هو الذي نستشفه من خلال الفضاء البحري المتخيل في القصة فالكاتب قدم أوصافًا له تغطي جميع الجوانب، فهو مكان الانطلاق والوصول، الرفض والخضوع، الكبت والبوح، هو القوة والهدوء، هو الحرية والسجن؛ السجن الذي عانى منه سي الحسين يومًا وعبر عن رفضه بالوقوف أمام البحر لأنه يمثل له الحرية والقوة. فبالتالي "لا تعتبر العلاقات المكانية عن مجرد إحداثيات مكانية هندسية مجردة لا علاقة لها بواقع الإنسان ومحيطه الاجتماعي والسياسي والأخلاقي، بل تمثل مفاهيم تصورية أساسية في وصف الواقع الاجتماعي وفي الأحكام الثقافية والأخلاقية في التصنيفات الإيديولوجية. الاستعارات المكانية حاضرة بتقاطباتها في مختلف الأنساق، في المجال السياسي نجد التقاطب بين اليمين واليسار، وفي المجال الاجتماعي نجد التقاطب بين الرفع والوضع، بين أعلى الهرم الاجتماعي وأسفله، وفي الدين نجد هذا التقاطب بين الأرض والسماء، أهل اليمين وأهل الشمال، وفي المجال الأخلاقي نجد التقاطب بين السمو والتدني".[17] وهذه التقاطبات التي تلقي بظلالها من خلال المكان هي موجودة في نصنا هذا وكانت الحفاوة للظلال النفسية والوطنية والسياسية، لا وبل يبدأ الفضاء المكاني من العنوان فقد التمسنا توظيفه له من خلال ثيمات البحر حيث عنونه **"خطوات على الرصيف البحري"**، فقد كان البطل طوال القصة يخطو أمام البحر ويتمشى، ويمارس التأمل... ونلحظ من خلال قراءتنا حضور الظلال النفسية والوطنية السياسية.

فاختيار الكاتب لعنوان ذي بعد مكاني، يشير إلى حتمية الترابط بين البعد المكاني والشخصية القصصية واقعية أم متخيلة ولا يمكن أن تعيش في معزل عنها، ففي محاولة لتفسير العنوان وربطه بالمتن والأحداث نجده يلقي بظلاله عليها ومرتبط بالأحداث والشخصيات.

فدال "البحر" يشكل محورا مهما يغري القارئ، فالعنوان يتحول إلى علامة ذات دلالات مهمة،" واختيار العنوان لا يتم عفو الخاطر، فهو مسألة تحتاج إلى نظر وتدقيق...يدل العنوان على شخصيات أو أماكن أو على برنامج سردي، فهو يختصر سلفا مغامرة الرواية ...ولكنه لا يكتسب معناه إلا بعد قراءة الرواية."[18] فالبحر جاء إشارة ودالا مغريا للقراءة والإطلاع فالبحر طالما كان مكانا جميلا ورحبا ويحمل معاني إيجابية وسلبية، وهذا ما يغري القارئ للاطلاع والقراءة، ولا يمكن للمتلقي أن يتجاوزه لأن علاقة الإنسان بالبحر علاقة مميزة وممتدة وعميقة لأنه رمز للحياة للهدوء والقوة للأمان للجمال كما لا ننفي ما يمثله من معاني أخرى سلبية كالموت والخطر والغدر ....

ونجد ظلال العنوان في المتن متمثلة بثيمات البحر وقد جاءت جملا مثل: **"وفوق الميناء العتيق تشكل المدينة حول نفسها متحدية الرصيف البحري الذي جاء يزاحمها ويقضي على بقية جمالها القديم"**[19]، هنا يصف المدينة كيف تمثل تحديا للبحر وهو يتمشى **"منطلقا من إمارة البحر إلى غاية المنارة المغروزة شرقا في طرفه الآخر"**.[20] هو إنسان يعشق تفاصيل البحر ويرقب تلك الصور التي تلوح بوجدانه وتعصر بأحاسيسه لأنه يرى نفسه في هدا التحدي الماثل أمامه، إنه صراع بقاء بين المدينة والبحر فالأولى بصخورها وثباتها والآخر بموجه وقوته وهدا الصراع يذكره بمواجهته الشرسة مع سجانيه فلا هو انصاع لهم وخمدت نار نضاله ولا هم تراجعوا عن كبته وحرمانه من الحرية التي ينشدها.

وحين قال "**المكان الذي تتربع عليه بناية الأميرالية**".[21] بالإضافة إلى الثيمات المفردة المتفرقة داخل النص **"إمارة البحر، سفن، المنارة، الصيادون، السمك، البحرية العسكرية، رجال البحرية، الأمواج، الميناء، صنارات، كاسرات الأمواج، فريق كرة الماء، السردين، الطُعْم، باخرة، موانئ، أهل البحر، شواطئها، يسبح، حورية البحر، بحر السياسة، البحار خير الدين، الشاطئ، القراصنة، الخليج"** كل ذلك وأكثر ظلال للعنوان داخل المتن السردي.

2. الظلال الوطنية والسياسية والنفسية للمكان:

أ- الظلال الوطنية والسياسية:

سي الحسين بطل القصة شخصية قوية حارب ضد فرنسا، ثم أصبح مديرًا لمصنع نسيج بعد الاستقلال وكان معروفا أنه منطلق كالموج لا يلقي بالا لمن يقف ضدّه وكان من شجاعته أن دافع عن نفسه في المحكمة ضد فرنسا وكل ذلك حبًّا لوطنه المتجذر في قلبه ويعشش في نفسه، فلم يستطع كبح جماح آرائه السياسية بعد الاستقلال وكيف يجب أن يكون الوضع ولكن لم يلبث أن زُجّ به في السجن لتلك الآراء، قامعين حريته في التعبير، لذلك وبعد خروجه من السجن يذهب للبحر مباشرة لأنه بالنسبة له رمز للحرية والقوة. ولنتفق على أن الكاتب باهتمامه بالجانب السياسي في القصة يجعلنا نصنفها ضمن الأدب السياسي "فالرواية السياسية تنزع نحو نوع من الواقعية القرارية ولا تتميز عن غيرها إلا بتأكيدها على الحدث السياسي"[22].

وقد اختار الكاتب شخصية وطنية نضالية تمارس السياسية ليطرح من خلالها أفكار السياسية التي تخدم صالح البلد، ويصفه قائلا: **"سي الحسين يعرف تاريخ الأميرالية معرفة جيّدة، سرد تاريخها منذ أن بناها البحار الكبير خير الدين ويأتي على سيرة بيدرو نافارو، ذلك الاسباني الذي تحصن في القلعة قبال حي القصبة... سي الحسين يحكي حكاية تلك القلعة كيف حاصرتها عساكر خير الدين... ويفيض في وصف الأوامر التي أعطاها خير الدين من أجل**

إعادة بناء صومعة الجامع الكبير التي نالتها المدافع المصوبة من تلك القلعة... هذه المنطقة يعرفها سي الحسين حجرًا حجرًا، ويعرف الصخور التي رصفت بين الشاطئ والقلعة...سيكي يبتسم ويتعجب من معرفته العميقة بتاريخ الأميرالية وتاريخ المدينة القديمة".[23] **إن** حبه للجزائر وانتماؤه العميق لها يجعله يحيط بتاريخها ويفقهه وبمعرفة دقائق الأمور وتفاصيل الأحداث ويفتخر بها، ويدل كذلك على امتداد ثقافة الكاتب لشخصية البطل فبقطاش غارق في الوطنية وكاتب مثقف يعي التاريخ بتفاصيله ملم به وخاصة التاريخ البحري. ليصور لنا بطله المحب لوطنه حتى النخاع ف**"الجزائر تسكن دمه، تعشش في أعماق نفسه والجزائر بدورها ازدادت تمسكا به منذ أن طرد من الثانوية في 1937 على إثر مظاهرة شعبية عارمة."**[24]هنا يظهر لنا جليا تاريخه النضالي ضد الاستعمار الفرنسي منذ صغره.

سي الحسين هو رمز للبطولة والجهاد وبحب الوطن، ولكن أصبح رمزًا للقهر وللكبت بسبب السلطة القمعية التيقامت بسجنه بسبب آرائه السياسيةالمعارضة لها. إذا هو سجين سياسي بامتياز يرفض الانصياع لأحد، شرس الطباع هو يشبه البحر في تلك الصفة فرغم وداعته إلا أنه حينما ينقلب ويثور لا يبقي ولا يذر ولا يلقي بالا لشيء وهو يريد شيئا واحدا هو الحرية والتي أصبح يجاهد لها آسفا، فشعور الجهاد ضد المستعمر قبلا هو أجَلُ أنبل لا يضاهيه شعور آخر، ولهذا هو مستميت في الدفاع عن آرائه السياسية، إنّها مطلق الحرية التي يبحث عنها ولا يجدها في حياته تحت الحكم السياسي القمعي، بينما يجد عزاءه في البحر حين يتأمّلهُ بنفسه. يُسِّر له بأشجانه، بأسراره، بمآسيه... فالبحر يمثل له الحرية، الانطلاق، القوة، والتمسك بالآراء **"كل ما يتعلق ببلدي، أفهمه فهما جيدًا! سي الحسين من هذه الجبلة بالذات، يفهم في شؤون الجزائر فهمًا دقيقا، ولا يحب أن يقف في وجهه أحد ويفرض عليه رأيه. ذلك هو بحر السياسة الذي ألقى فيه سي الحسين بنفسه. والرصيف البحري مازال طويلا، ولن يقصر أبدا. هو أشبه ما يكون بالسياسة نفسها، يتوقف سي الحسين في آخر الرصيف عند المنارة الشمالية... أموت ولن تسقط كلمتي! ...أنا لم أحارب فرنسا لكي يتسلط على سي قدور أو سي عمر!"**[25]سي حسين لا يجيد الانبطاحولا يوجد الخنوع والخوف في قاموسه لهذا يرفض الإذعان متمسكا بآرائه السياسية ومواقفه لا يحيد عنها قيد أنملة وهذا ما جعله يفقد حريته وهي أغلى ما يملكه الانسان ويفقد جلّ أصدقائه، ويخسر مؤانسة البحر له لأنه يراه ملاذه الآمن وصندوق أسراره التي يبوح ويسرها له دون أن يخشى الوشاية والغدر، فالبحر هو نظيره في الصفات؛ العمق القوة المجابهة إذا أصبح البحر رمزا ومعادلا للسياسة وموقع البحر ووصفه يأتينا من خلال إدراك البطل وعمق تجربته فله باع طويل في مضمار السياسة والنضال الثوري، فالبحر يصبح معادلا للنضال السياسي الطويل والمرير من أجل جزائر أفضل. فالصورة المرسومة من لدن سي حسين توحي

بمدى وطنيته ووجوب استمرارها ووعيه الكامل بصعوبة الموقف والجهد الذي يتطلبه لقاء معركته النضالية السياسية والتي أصبح يرى بأنها بطول الرصيف البحري وكِبر حجمه، وهذه هي قمة التضحية في سبيل حب الوطن.

"الرصيف البحري طويل جدا. هذه الحقيقة معروفة عند سي الحسين طويل مثل السياسة، قطع سي الحسين المسافة مرتين، ثم وقف متأنيا في وسط الرصيف وقال لعمر: عليك أن تدفنني و اقفا، ينبغي أن أواصل الكفاح داخل قبري... عندما أموت ينبغي أن أحمل معي هذا الرصيف لكن أسير عليه، الحرية التي أشعر بها الآن ينبغي أن تتبعني إلى الدنيا الأخرى، يجب أن تبقى الحرية هي هي، على نفس هذه المسافة."[26]إذا فشخصية البطل حزينة ومكلومة متعطشة للحرية التي ناضل من أجلها فينتابه القلق والكآبة على مرفأ الذاكرة ويزداد ضراوة كلما هبت ذكرياته فنفسه أبية تشحذها الغيرة على الوطن.

ب- الظلال النفسية:

إنّ اللغة بقدرتها اللامحدودة واللانهائية تستطيع أن تخلق عوالم وأخيلة تماهي الواقع أحيانا وتبتعد عنه حينا وقدرة الأديب وسعة خياله وترويضه للغة تجعله قادرا على التصوير الفني والابداع خالقا شخصيات تعيش في أمكنة وأزمنة مؤطرة تأطيرا يتيح للأفكار أن تتجلى وفق منحى وسيرورة القص التي يريدها لها المؤلف أن تكون وهذا كله منطلق من الواقع.[27]

إذا فالكاتب حينما يصف الأماكن والشخصيات معتمدًا على اللّغة، هو يحاول الوصول إلى الواقع في أقرب صوره، ومن الصور الواقعية التي يريد الوصول لها هي تصويره لشخصية البطل حيث رسمها بطريقة خاصة لإيصال أفكار معينة، ومن بين الأفكار والملامح التي اتسمت بها الشخصية الرئيسية التي تحيلنا للجانب النفسي فيها، أن البحر يأجج مشاعره الداخلية وصراعه النفسي، فجاءت على شكل لحظات شرود وهذيان وتداعي لذكرياته واسترجاعه لها في لحظات صمت تأخذه بعيدا لمرافئ الذاكرة حينما كان شابا مجاهدا صنديدا وعنيدا ضد الاستعمار وما اتصف به من شجاعة وبسالة في المقاومة، وكذلك يوم كان مديرا لمصنع النسيج حيث اتصف بالحكمة وحسن التدبير والشجاعة في اتخاذ القرارات وسواءًا كانت ذكريات من الماضي السحيق أو حاضرًا معاشا أو مستقبلا مبهما، فإنها جاءت ضمن تخييل سردي منسجم سلس عبر الزمن باستخدامه لتقنية الاسترجاع أمام مكان واحد هو البحر؛ "إنّ المكان في مقصوراته المختلفة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مكثفا وهذه هي وظيفة المكان إلى جانب وظائف أخرى ترتبط بتقنيات النص، وتنوعه الأدبي، بل بالموضوع المعالج أيضا".[28]

"فالمكان في العمل الفني شخصية متماسكة، ومسافة مقاسة بالكلمات ... ولذا لا يصبح غطاء خارجيا أو شيئا ثانويا، بل الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني

والروايات أو القصائد التي تحسن استخدامه إنّما تسجل جزءًا من تاريخية الزمن المعاصر. وبعكسه سيكون المكان عند الكاتب عادٍ مجردًا من معناه الفلسفي والفكري، المكان هو الجغرافية الخلاقة". في العمل الفني... وسيلة فاعلة في الحدث وسيلة محتوية على تاريخية الحدث."[29] وبقطاش يتقن جعل المكان الجغرافي مكانًا فنيا يحمل معاني فكرية وإيديولوجية ونفسية.... فقد جعل البطل يشبه البحر في كثير من الصفات، منها النفسية فهو يشترك معه أنه لا يستسلم ولا يركع للصخور التي تمثل السلطة، فقد مثّل صراعه النفسي بينه وبين السلطة بالبحر الذي يجابه المدينة بشراسة وعناد"**فوق الميناء العتيق تتكتل المدينة حول نفسها متحدية الرصيف البحري**"[30] **الذي رغم تكتل المدينة عليه مشكلا عائقا وتحديا لبسط سيطرته ونفوذه بتوسعه أكثر على باقي الأراضي، فالبطل يمثل البحر، والمدينة تمثل الناس المضادين له الذين يجابهونه على باطل.إنَّ "الصراع أبدي بين الأمواج والصخور لا هي تحني رأسها ولا الصخور تركع".**[31] وسي حسين هكذا لا يركع ولا يهن لأحد ولا يحني جبينه مطلقا ورغم اختلافهما في إلا أنَّ أحاسيس ونفسية البطل عكستها صفات البحر وأوصافه.

وما اختياره لممارسة رياضة الركض والتأمل والتدبر أمام البحر إلا لأنه يمثل له الضدية الجغرافية والهندسية والنفسية للسجن الذي كان قابعا فيه. "**فالرصيف البحري طويل جدا، يقطعه سي الحسين منطلقا من مدخل إمارة البحر... كأنما هو عسكري من بقايا الإمبراطورية الرومانية القديمة**".[32] "**قبل أن يبدأ رياضته، حدق بعض الوقت في الرصيف البحري**".[33]

ولم لا يثير فيه كل هذا الشجون أليس "البحر الأبيض المتوسط، شهد هو الآخر نقل الحضارات وتزاوج الثقافات، كما شهد سفن الغداة وانحدارهم"[34]. فهو كان بطلا وطرد الغُزاة الفرنسيين ليجيء من هو من بني جلدته ليضيق عليه وهذا ما سبب له الضيق والإحساس بالقهر مختلطا بالعجز. والبحر فقط من يواسيه، ويمثل له الحرية "**يقول لو أنني عشت في عهد أمير البحر خير الدين، لكنت قفزت لتوي على سفينة من سفن القراصنة و انطلقت نحو البحر العريض بدلًا من أشغل نفسي بالهوام والحشرات من أهل السياسة في هذا البلد!**"[35] ذلك "**لأن سي الحسين من جيل عتيد، جيل الجبابرة الذين لا يجيئون إلى هذه الدنيا إلا مرة واحدة في مائة عام**".[36]

فالبطل كان يعاني من السجن لآرائه السياسية العنيدة، والسجن يمثل الضيق والظلم والقهر والردع والألم والمعاناة والبحر يمثل ضدا ونقيضا لكل هذه الأحاسيس؛ "البحر مكان مفتوح يظهر أفكارًا وأبعادًا سياسية واجتماعية واقتصادية وإنسانية في ضوء الثنائيات المتقابلة والتماثلية. ويقوم البحر كمكان مفتوح بدور حيوي على مستوى الفهم والتفسير والقراءة النقدية".[37]

يحس سي الحسين بالاغتراب في بلده ومن وضعها السياسي ولم يحس بالانتماء إلا قبالة البحر، لأنه يثير ذكريات نضاله ويمثل له الحرية وينسجم معه "حين يتم الانسجام والتفاعل الجميل بين الإنسان والمكان فإن هذا الانسجام يؤسس وجدانا وشعورًا، ويشعل فتيلا من الحب والتعاضد بينهما".[38] ومن دلالات العمق النفسي الذي خلّفه البحر في البطل حين **"وقف متأنيا في وسط الرصيف وقال لعمر عليك أن تدفنني و اقفا، ينبغي أن أواصل الكفاح داخل قبري... عندما أموت، ينبغي أن أحمل معي هذا الرصيف لكي أسير عليه. الحرية التي أشعر بها الآن ينبغي أن تتبعني إلى الدنيا الأخرى، يجب أن تبقى الحرية هيهيعلى نفس هذه المسافة".**[39]فهو قد عانى من السجن الذي قيد حريته وقتلها وكبح جماحها، وقد حملت شخصيته الحزن والبؤس والقهر والكبت، وقد عذبه ذلك نفسيا، وأفقده الإحساس بالزمن وبالوحدة القاتلة، ورغم هده الآلام التي تجرعها إلا أنها انعكست عنده إيجابيا بالقوة والثبات والصمود اتجاه الحياة واتجاه سجانيه، فكل كل شيء يهون في سبيل إعلاء كلمة الحرية وفي سبيل وطنه.

فالبحر القوي الهائج الواسع الجميل ترك عميق الأثر في نفسيته حين بعث فيه القوة والعزيمة والإصرار لمواصلة النضال السياسي ضد المجهول والمعلوم وركوب الأخطار، ومن هنا نشأت علاقة معالبحر روحية ونفسية عميقة، وقد كشف لنا البحر كمكان تخييلي سردي عن كوامن وخبايا نفسية البطل.

وهنا اندمج وتماثل البطل وتماهى واتحد مع البحر فهو مكان يرمز له بالحرية في أجمل معانيها وحالاتها التي تمناها وناضل لأجلها عمرا كاملا ومضحيا بالغالي والنفيس أليست الحرية أغلى وأروع معاني الحياة وأهمها فدونها لا حلاوة ولا طلاوة للعيش وهو قد حرم منها إلى أن وافته المنية.

وأهم النتائج المستخلصة من هذا البحث:

- أن للمكان تأثيرا وأهمية وسطوة على الناس في الحياة العامة وعلى المبدعين بصفة خاصة، لذا حاز على عناية خاصة في الأدب والدراسات النقدية.

- البحر مكان مميز عند بقطاش فمن يتتبع منجزاته السردية يجده يحتفي به، وله حظوة عنده، ربما لأنّ البحر أصلا مكان طبيعي مميز، أضف إلى ذلك أنه سليل بحارة ويعني له طفولته وشبابه وآماله... ولكن لكل كاتب إضافته ولمسته الفنية التي يَسِمُه بها، ذلك لأن المبدعين لهم أساليبهم الخاصة التي تجعل القارئ يرى انعكاس المكان على البنية السردية، سواء انعكاس تاريخي، ثقافي، وطني، أو نفسي... فالبحر مكان ينطوي على دلالات وظلال عميقة وطنية وسياسية ونفسية وحتى تاريخية فلطالما حاربت من أجله الأمم لبسط نفوذها عليه أو كان ساحة حرب وقتال ولهذا حمل دائما دلالات وايحاءات ورموز مختلفة على مر العصور .

- جاء توظيفه للمكان إيجابيا من خلال شخصيات القصة لا سيما البطل الذي كان يماثل البحر في صفاته كالقوة والعزيمة والانطلاق والعمق والمجابهة ضد التيار فالبحر مكانٌ يمثل ضالته المنشودة ألا وهي الحرية، حيث جعل البحر رمزا للحرية والكفاح والنضال ورمزا للتأملات الفكرية والفلسفية ومرفأً للذاكرة.

- اختار الكاتب عنوانا يحمل ظرفا مكانيا وهو"البحر" لأهميته التي يسندها له.

- البحر مكان سردي اختاره الكاتب كي يكون معادلا موضوعيالرمز الحرية.

- ركز على البعد النفسي للبطل الذي يحس بالقلق والكآبة والغربة النفسية في وطنه ولا يجد عزاءا إلا أمام البحر مناجيا لأيام الشباب والنضالفهو الملجأ والصديق. فالبطل له قناعاته الوطنية والسياسية والتي يرفض الخضوع لتغييرها رغم مغبة السجن.

- حمّل الكاتب القصة أبعادا وطنية وسياسية انتقادا للأوضاع التي عاشتها الجزائر.

- اتسمت كتابته بالواقعية حيث ذكر أسماء لشخصيات سياسية وتاريخية حقيقة مثل البحار خير الدين بك الذي تمنى أن يكون مثله في الشجاعة والإقدام. وإبداء البطل إعجابه بشخصية البحار أضفى بعدا هوياتي من خلاله، جاعلا البحر مكانا يرمز للحياة والحياة بعد الموت كذلك.

- جاء وصف المكان من منظور الشخصيات فهويته وصورته تُبْنى انطلاقا من رؤيتهم الخاصة له.

- التعلق بالمكان عند البطل يدل على عراقة انتمائه ووطنيته، وحفاظه على الثوابت والمبادئ، وهذا يدل على خصوصية توظيف عنصر المكان عند بقطاش.

- المكان فاعل ومؤثر في الشخصية لأن البطل يُجِّل البحر ويقدسه ويمثل له المكان الذي يجد فيه روحه النضالية التي سلبت منه عدوانا.

- وصف المكان من زاوية نظر رؤية البطل التي نتج عنها تعمق إحساسه بالحكمة من خلال تجربتهفالبحر يعكس احساسه القوي بالحرية.

- استمد الكاتب مادة صوره عن البحر من ذكريات طفولته وشبابه فهو حفيد بحارة وعاش في مدينة بحرية و هي الجزائر العاصمة كما أنه ما انفك يذكر أنه يحب البحر و يستعمله كمكون في تخييله السردي، أضف إلى ذلك محاولة اغتياله التي نجا منها بأعجوبة والتي جعلته قريبا من موت محقق هذه التجربة القاسية أذكت فيه شعلة الحياة أكثر ليجابهها بشجاعة أكبر ليكتب بواقعية وشجاعة أدبا يعبر فيه بسالة عن آرائه وعن المعانيالأخرى للحياة مستخدما البحر مكانا وعنصرا تخييليا سرديا فهو ليس مسطح مائي فقط بل هو أكثر من ذلك هو رمز الحياة والحرية والجمال.

هوامش وإحالات المقال

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة مكن، دار صادر، بيروت، مج 14، ص414.

[2] ينظر: أحمد حسنين، سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، مجلة عيون المقالات، المغرب، ط2، 1988، ص69.

[3] ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص 30.

[4] محمد بوعزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 1431هـ-2010م، ص99.

[5] سامية أحمد أسعد، القصة القصيرة وقضية المكان، مجلة فصول، مصر، م2، ع 4، 1982، ص 179.

[6] مرزاق بقطاش، آخر القعدات، الفضاء الحر، الجزائر، د/ط، 2012، ص39.

[7] سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، مصر، د/ط، 2004،ص 104.

[8] مرزاق بقطاش، آخر القعدات، ص41.

[9] أحمد محمد عطيه، أدب البحر، دار المعارف، القاهرة، د/ط، د/ت، ص07.

[10] منير عوض حسين المقيد، رمز البحر في الشعر الفلسطيني المعاصر، ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، نوفمبر 2017-صفر 1439، ص27.

[11] سامية أحمد أسعد، القصة القصيرة وقضية المكان، ص 182.

[12] مرزاق بقطاش، ص40-41.

[13] المصدر نفسه، ص41.

[14] المصدرنفسه، ص42

[15] المصدر نفسه، ص42.

[16] محمد بوعزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، ص100.

[17] أحمد طاهر حسين، أحمد غنيم وآخرون، جماليات المكان، ص69.

[18] لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي انجليزي فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2002، ص125.

[19] مرزاق بقطاش، آخر القعدات، ص39.

[20] المصدر نفسه، ص39.

[21] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[22] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني،بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء،المغرب،ط1، 1405هـ،1985، ص 104.

[23] مرزاق بقطاش، آخر القعدات، ص45.

[24] المصدر نفسه، ص39.

[25] المصدر نفسه، ص52.

[26]المصدر نفسه، ص53.

[27]ينظر: أحمد زنيبر، جمالية المكان في قصص إدريس الخوري دراسة نقدية، التنوخي للطباعة، المغرب، 2009، ط1، ص22.

[28]أحمد طاهر حسين، سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، عيون المقالات، المغرب، ط2، 1988.

[29]ياسين النصير، الرواية والمكان (2)، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية، بغداد، العراق، د/ط، 1986، ص17-18.

[30]مرزاق بقطاش، آخر القعدات، ص39.

[31]المصدر نفسه، ص39.

[32]المصدر نفسه، الصفحة نفسها،

[33] المصدر نفسه، ص40.

[34]ياسين النصير، الرواية والمكان 2،

[35]مرزاق بقطاش، آخر القعدات، ص49-50.

[36]المصدر نفسه، ص51.

[37]حسن نجمي نقلا عن مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، ص115.

[38]مهدي عبيدي، جماليات المكان، ص115.

[39]مرزاق بقطاش، آخر القعدات، ص53.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر:

-مرزاق بقطاش، آخر القعدات، الفضاء الحر، الجزائر، 2012،د/ط.

2. المراجـع:

1. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت،لبنان، مج 14، مادة (مكن).
2. أحمد زنيبر، جمالية المكان في قصص ادريس الخوري دراسة نقدية، التنوخي للطباعة، المغرب، ط1، 2009،
3. أحمد طاهر حسنين، أحمد غنيم وآخرون، جماليات المكان، مجلة عيون المقالات، المغرب، ط2، 1988.
4. أحمد محمد عطيه، أدب البحر، دارالمعارف، القاهرة، د/ط، د/ت.
5. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.
6. سامية أحمد أسعد، القصة القصيرة وقضية المكان، مجلة فصول،مصر، م2، ع 4، 1982.
7. سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، د/ط،مصر، 2004.

8. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي انجليزي فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2002.

9. محمد بوعزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 1431هـ-2010م.

10. منير عوض حسين المقيد، رمز البحر في الشعر الفلسطيني المعاصر، ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، نوفمبر 2017-صفر 1439.

11. مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، د/ط، 2011.

12. ياسين النصير، الرواية والمكان (2)، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية، بغداد، العراق، د/ط، 1986.